

الدور الرسالي للمدارس الحرة بوادي سوف
بالجنوب الشرقي الجزائري خلال الثورة التحريرية (1954-1962)
The Ideological Mission of Free Schools in Oued Souf,
Southeastern Algeria, During the Algerian Liberation Revolution
(1954-1962)



أ.د. علي غنابزية*

جامعة الوادي - الجزائر

ghenabzia-ali@univ-eloued.dz

مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للجزائر

تاريخ الاستلام: 2026/02/22 تاريخ القبول 2026/05/04 تاريخ النشر 2026/06/08



ملخص:

يدرس هذا المقال، دور المدارس الحرة في وادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري خلال الثورة التحريرية، وكيف صمدت أمام المضايقات الفرنسية، وكانت نشاطا أضافه السكان إلى سياسة الرفض للاستعمار، واعتمدوا بذلك على المقاومة الثقافية أسوبا للكفاح، وسلاحا تصدوا به لكل مخططات المستعمر الذي حارب الهوية، وحاول مسح الشخصية الوطنية. وحققت المدرسة أهدافها، وأخرجت جيلا متعلما، أثرت فيه التربية الدينية والوطنية، وساهم في دعم الثورة في المدن والجبال داخل المنطقة وخارجها.

الكلمات المفتاحية: المدارس الحرة، الجنوب الشرقي، النشاط الفكري، المساجد،

الإصلاح.

Abstract:

This article studies the role of free schools in Oued Souf, southeastern Algeria, during the Algerian liberation revolution. It examines how these schools withstood French colonial harassment and functioned as part of the local population's policy of rejecting colonial rule. The study highlights cultural resistance as a method of struggle and an effective

* المؤلف المراسل

weapon against the colonizer's plans, which sought to distort Algerian identity and erase the national character. The free schools succeeded in achieving their objectives by producing an educated generation grounded in religious and national values, which contributed to supporting the revolution in both cities and mountains within the region and beyond.

key words: Free schools, Southeastern Algeria, Intellectual activity, Mosques, Reform.

مقدمة:

تعتبر منطقة وادي سوف - في الجنوب الشرقي الجزائري - من المناطق المعزولة في العهد الاستعماري، لأن المستعمر أراد لها الخمول، وفرض على سكانها الحكم العسكري المتسلط الذي ضيق الأنفاس، وشدد عليها كل التنقلات، وأخضع حركة السكان للمراقبة المستمرة، واستمر ذلك إلى يوم قيام الثورة التحريرية، والتي شهدت نشاطا ثوريا معتبرا على المستوى المحلي، فتفجرت المعارك، بداية من معركة حاسي خليفة التي عرفها شهر نوفمبر، وقامت يوم 17 نوفمبر 1954، والتي افترقت سلطات الاحتلال بالمنطقة، فاستنفرت كل قواها، وصارت المنطقة في حصار شديد.

وكان المجتمع يكدح بشدة، ويخوض الحياة الاقتصادية في محوريها الأساسيين، أولهما ممارسة الزراعة، بغراسة النخيل، التي هي أساس حياتهم، ومركز اهتمامهم، الذي ملك عليهم أنفسهم، ووفروا له كل وقتهم، والثاني هو انتقالهم في الآفاق البعيدة، يعملون في التجارة، ويحلبون السلع والمواد الأساسية، ويفكون العزلة الاقتصادية عن المنطقة.

ورغم قساوة الطبيعة، تركز اهتمام الناس على تربية الأبناء، ووجدوا التعليم هو صمام الأمان؛ وفي الوقت الذي كانت المدرسة الفرنسية تحاول استقطاب الناشئة، ولكن المدرسة القرآنية التقليدية والمدارس الحرة، كانا لها بالمرصاد، ولكل منها أهدافها، ورسالتها في التوجيه.

الإشكالية: وإذا طرقتنا تاريخ المدرسة القرآنية الحرة بمنطقة وادي سوف، فما هو دورها الرسالي؟ وكيف تفاعلت مع الأحداث في عهد الثورة؟ وما هي ملابساتها المختلفة، والآثار المترتبة عن ذلك؟ تلك هي الإشكالية المحددة التي يهدف لها هذا الموضوع.

منهج الدراسة: تم البحث في تاريخ المدارس الحرة بوادي سوف، بالاعتماد أساسا على المنهج التاريخي، بجمع المادة المتناثرة والنادرة، ولاسيما الروايات الشفوية، وتمحيصها، واستقراء الأحداث، وتتبع المدارس في القرى المتزامية الأطراف، وحصر أهدافها ونشاطاتها. والاستعانة بالأدوات البحثية من إحصاء واستنباط الأفكار الجديرة بالتنويه.

أهداف الدراسة: تدخل هذه الدراسة ضمن التاريخ الثقافي للجزائر، وتهدف وضع نموذج لكتابة التاريخ الوطني من خلال:

- إبراز تاريخ المدارس الحرة في منطقة وادي سوف متزامنا مع تاريخ الثورة التحريرية وتفاعل أحداثها، والتي كانت سلاحا يتصدى به المجتمع من زاوية ثانية، ويصنع الروح الوطنية في التلاميذ الذين كانوا سندا للثورة حتى أواخر أيامها.

- البحث في النشاطات المتعددة التي احتضنتها المدارس، وأخرجت بها جيلا من الشباب، الواعي بشؤون أمته، وذلك ثمرة الجهود التي بذلها السادة العلماء، بإنارة الفكر، وتفعيل النشاط التوجيهي، وعدم الاكتفاء بالتعليم التقليدي، والتركيز على التربية الدينية والوطنية.

- الكشف عن المعاناة التي واجهتها المدارس الحرة من الإدارة العسكرية الفرنسية في وادي سوف، وأساليب التضييق التي أثرت على المسيرة العلمية. والتنبيه للصمود الذي وقفه المجتمع، حتى تحقق الاستقلال.

1- المدارس الحرة بوادي سوف:

تعتبر المدارس في وادي سوف من أساسيات المؤسسات المحلية، ورغم الطابع الفلاحي الذي ساد المجتمع، فإن الحرص على تعليم الأبناء، كان يمثل تحديا من السكان، ويصارع

المستعمر، حتى يحافظوا على الهوية الإسلامية للمجتمع، وهذا جانب من المقاومة الثقافية، وهي المنطلق للمقاومة السياسية والعسكرية.

وكانت المدارس منتشرة في ربوع وادي سوف، ولا تخلو منها القرى أو الأرياف، فإذا تجمع السكان في "جر"⁽¹⁾ من النخيل، أسسوا نواة لمسجد صغير، وعينوا حافظا للقرآن معلما فيه، لأن شرفهم في تعليم أبنائهم، والإقبال على المدارس الفرنسية كان محدودا، ثم زاد في السنوات المتوالية، حتى صار الإقبال بارزا أثناء فترة الثورة التحريرية.

ولكن الحركة الإصلاحية، أثرت على المجتمع الجزائري، فأسسوا المدارس الحرة في مختلف أنحاء الوطن، وكان لوادي سوف نصيبها، وأول مدرسة عصرية، أسسها الشيخ عبد العزيز الشريف في الزاوية القادرية بالوادي في حدود 1937،⁽²⁾ وخصص لها علماء من رجال الإصلاح، وهما الشيخان: عبد القادر الياجوري وعلي بن سعد،⁽³⁾ ورغم اعتقالهم، والتضييق على المدرسة، واغلاقها، فإن المجتمع لم يستسلم، وعرف عددا كبيرا من تلك المدارس في عهد الثورة، ونقسمها إلى قسمين:

-المدارس القرآنية في المساجد والزوايا: وهي مدارس تهتم بتحفيظ القرآن الكريم، وربما يضاف إليها حفظ المتون، وخاصة المرشد المعين في الضروري من علوم الدين، لابن عاشر.

-المدارس الحرة: وهي مدارس أغلب مقراتها خارج المساجد، وفي بعض البيوت، أو مدارس بنيت للتعليم، وبها أقسام، وسبورة، وعنوانها الظاهر التعليم القرآني، وهو الفقرة الأساسية اليومية، وإلى جانبه تدرس العلوم والمعارف، مع نشر الوعي، وبناء الشخصية، وتكوين الجيل، وترسيخ المبادئ الأساسية.

وأغلبها تستقي مناهجها من الخط العام للحركة الإصلاحية وفكر جمعية العلماء، ولكنها تموه على الاستعمار، فالشيخ الهاشمي حسني، كان باب مدرسته قديما باليا، فلما طلب منه بعض الأفاضل تغيير الباب بأخر أحسن منه، قال لهم بحكمته وبعد نظر: (إذا

جعلته بابا جيدا سيلفت النظر). ويعني به نظر الاستعمار، الذي كان دوما يتحسس أخبار تلك المدارس. وأهم المدارس الحرة التي نتخذها نموذجا في هذه الدراسة:

-مدرسة أولاد أحمد: التي أسسها الشيخ الهاشمي حسني(1902-1989م) فور رجوعه من العمل في الجزائر العاصمة سنة 1946، في حي أولاد أحمد،⁽⁴⁾ في قلب مدينة الوادي وبالقرب من مقر الحاكم العسكري، وهي تسير على منهج وفكر جمعية العلماء، ولكن في الظاهر هي مدرسة قرآنية. وكان لها أثرها الكبير في المنطقة. وكانت تعلم القرآن الكريم، ومبادئ اللغة العربية من نحو وصرف وتاريخ وجغرافية وحساب.⁽⁵⁾

-مدرسة النجاح: يعتبر الشيخ محمد الطاهر التليلي(1910-2003)،⁽⁶⁾ هو المدير والمدرس بالمدرسة وعمودها الفقري، وواضع مناهجها، والمشرف على الأساتذة الذين يعملون في المدرسة في مدينة قمار،⁽⁷⁾ وكان لها إشعاعها العلمي، وعنوانها التعليم القرآني، وإلى جانبه تعليم مبادئ الدين الإسلامي واللغة العربية، واستمرت في عملها إلى آخر أيام الثورة.

-مدرسة الفلاح: وتأسست بجنبة الرقيبة،⁽⁸⁾ وشرعت في التدريس في حدود 1947، وأخذت تتطور، وكان عمدتها الشيخ محمد التركي(ولد 1919)، وتخرج على يديه جيل، ولكن انطلاق الثورة، ومتابعة الشيخ، وكثرة الوشايات، جعلت المدرسة تتوقف، ويستمر الشيخ في التدريس بمدرسة النجاح بقمار.⁽⁹⁾

-مدرسة الإصلاح: وتأسست ببلدة الزقم،⁽¹⁰⁾ وكان رائدها الشيخ إبراهيم كلكامي (1913-1957)، وأدت المدرسة دورها، وصار تلاميذها يواصلون دراستهم في جامع الزيتونة، واستمرت في نشاطها إلى آخر عهدها في عام 1957 عندما نكل الاستعمار بشيخها كلكامي وأعدم في مجزة رمضان في أفريل 1957.⁽¹¹⁾

-مدرسة البعث: وتأسست في الأربعينيات ببلدة الجديدة بنواحي الديلة،⁽¹²⁾ وكان رائدها الشيخ العروسي حويتي، الذي تمكن من غرس الروح الوطنية في تلاميذه، والذين

التحق بعضهم بالثورة، وكانت الجديدة مفعمة بالروح الثورية. واضطر الشيخ إلى مغادرة المنطقة، ولم يعد إليها إلا في عام 1956، وواصل التعليم في ظروف صعبة، ولكنه اعتقل، وكاد يقتل في مجازر أبريل 1957. وتمكن من غرس الروح الوطنية في تلاميذه، الذين صاروا أبطالاً في ميادين الجهاد.⁽¹³⁾ وتوجد مدارس أخرى شعبية، اضطلعت بالتعليم العربي الإسلامي،⁽¹⁴⁾ وقام بها شيوخ الزوايا أو أئمة المساجد، في كامل المنطقة.

2- المدارس الحرة وأهدافها:

كانت المدارس الحرة تهدف إلى تربية جيل يحمل مشعل التغيير المنشود في الجزائر، ويعتبر المعلم نفسه في حلبة الصراع يدرب كتائب من الصبيان، يتوسم فيهم الفتوة، ويعددهم للغد المشرق، ويمكن الوقوف عند أهم الأهداف التي أسست من أجلها المدارس الحرة:

- الحرص الشديد على حفظ التلاميذ القرآن الكريم، لأنه يثبت أقدامهم على طريق الصلاح، ويعددهم للمراكز الإمامة، ويرتقوا به إلى مصاف العلماء ولاسيما عند مواصلة دراساتهم في جامع الزيتونة المعمور، أو في معهد ابن باديس بقسنطينة.

- تربية الجيل على القيم الدينية والأخلاق الإسلامية السامية، والإشارة إلى ذلك من خلال الآيات التي يحفظونها، أو الأحاديث الشريفة التي يستعرضونها، أو القصائد والمقطوعات التي يلقنونها إياها وينشدونها، مثلما كان يفعل الشيخ محمد الطاهر التليلي، فقلما يترك فرصة إلا ويبدع في نظم أبيات، لأنه يراها أكثر فاعلية في غرس تلك القيم،⁽¹⁵⁾ مثل هذه الأبيات التي تحت على مصاحبة أهل الاستقامة:

أنصحكم معاشر الصغار * عليكم بصحبة الأخيار

وابتعدوا عن صحبة الأشرار * فإنهم وباء كل جبار⁽¹⁶⁾

- تثبيت القيم الوطنية، وربط الجيل ببلاده، وتعريفه بالاستعمار الغاشم، الذي يؤول أمره إلى زوال، طال الزمن أم قصر، واستغلال حال الثورة وأحداثها، وغرس تلك القيم بحكمة، وبما يلائم حال أولئك الصغار.

3-نشاطات المدارس الحرة:

كانت المواد الأساسية هي القرآن الكريم، ومبادئ اللغة العربية، والعلوم والمعارف الدينية، ولكن يتخللها النشاط الثقافي، والتدخلات الجانبية التي يحاول المعلم بها بث الروح الوطنية، وأهم تلك النشاطات:

أ-النشاط الفكري: وهو كل ما يمس الوجدان، ويحرك العواطف، ويرشد الصغير، ويثبت القيم في ذهنه، حتى يتعود على القيم الدينية والوطنية:

وكان المعلم يتطلع إلى مستقبل زاهر للبلاد، بفتحه باب الأمل، مثلما كان يفعل الشيخ العروسي حويتي في بلدة الجديدة، يحدثهم ويمنيهم بأن الجزائر سوف تتحرر من قيد المستعمر، وذلك قبل اندلاع الثورة التحريرية، ويرد عن أقوال "القومية"⁽¹⁷⁾الذين يروجون أن فرنسا قوة باقية لا تقهر. وكذلك من خلال الفتاوى التي أفتى بها الشيخ بوجوب الجهاد وحمل السلاح من أجل تحرير الجزائر، فقام بتجنيدهم وإرسالهم لدعم الثوار منذ اندلاع الثورة، ومن خلال القصائد الثورية التحريرية التي نظمها وغرسها في نفوسهم، فتطلعت روحهم للاستقلال.⁽¹⁸⁾

كان المعلم في المدارس الحرة يعرف الهدف، ويعتبر نفسه جنديا في الميدان، وهو يعد الجيل، ويصنع الفكر، وقد أشار إلى ذلك الشيخ الهاشمي حسني بقوله: (كانت الثورات السابقة وطنية وحماسية، غير أن أثرها كان محدودا، لم يحقق الهدف المرجو منه، وذلك لانعدام الدرع الواقى والمساعد من الشعب، كما تفتقر هذه الثورات إلى التمويل المستمر، ولهذا يجب توعية الشعب والالتصاق به، لأنه العامل الأساس لإنجاح الثورة، ومواصلة النضال، حتى يتمكن من الانتقال فيما بعد للعمل المسلح). ويستطرد موضحا أن السبيل الأهم هو تعليم الناشئة وتنوير أفكارهم: (وبالتالي يجب تعليم الشعب لغته ودينه وتوعيته حتى تكون مساهمته منسجمة وفعالة. كما يجب التعامل مع العدو بحذر، وأن نتكيف مع المستعمر وفق ما تقتضيه الظروف حتى نحقق الهدف المنشود).⁽¹⁹⁾

وكان الشيخ محمد الطاهر التليلي ييث في نفوس تلاميذه معاني البطولة والشجاعة، وأن المستعمر الظالم لا بد له من قوة السلاح، ويلقنها لهم من خلال قصة عنزة بن شداد، وكيف يأبى الظلم والخنوع، وما زال هذا البيت راسخا في أفكار تلاميذه، وبلغوه لنا بكل فخر واعتزاز، والبيت هو قول عنزة:

حكم سيوفك في رقاب العدل * وإذا نزلت بدار ذل فارحل

وإذا بلت بظالم كن ظالما * وإذا لقيت ذوي الجهالة فاجهل⁽²⁰⁾

كما فتحت مدرسة النجاح فضاء ثقافيا للطلبة والأساتذة في ليلة الجمعة، حتى تتفتق قرائحهم، وتجود نفوسهم بالخطب والمحاولات الشعرية، والخواطر العامة، ترفيها عن النفس، وتدريباً للعقل على التفكير، وتعليماً ميدانياً على الخطابة والإلقاء، وتعميق الأفكار البناءة، مع اختلاطها بالنكتة الهادفة، والموعظة المؤثرة، والتوجيه التربوي من قبل الشيخ التليلي.

وكانت المكتبات ملحقة بالمدارس، وهي في أغلبها توفر من المتطوعين بالكتب، وعمدتها مكتبة الشيخ، مثلما فعل الشيخ العروسي حويتي في الجديدة، عندما فتح مكتبته المنزلية للطلبة.⁽²¹⁾ كما أن مكتبة مدرسة النجاح، كانت زاخرة بالكتب المتنوعة، التي يحث الشيخ التليلي طلبته على قراءتها، وكتب في ذلك أرجوزة، بمثابة نشيد:

فوائد المطالعة * كثيرة وجامعة

منها تكثير الحفظ * منها تحسين اللفظ

منها التعبير العربي * منها الكلام الأدبي

منها الحديث الأطيب * منها الكلام الأصوب.⁽²²⁾

ب- النشاط التوجيهي: وهو يتطلب حكمة بالغة، ووعياً سامياً، حتى يستقيم مسار الصبيان، وتربى في نفوسهم هم الكبار:

كان بث الوعي في نفوس التلاميذ هو الرسالة التي أناط بها المعلم ذاته، وجعلها مهمته الأساسية في حجرات المدرسة، فلا يكل ولا يمل من اغتنام الفرص، واستغلاله شرح النصوص في التذكير، ونشر الوعي السياسي، فكان الشيخ الهاشمي حسني رائدا في هذا المجال، وكانت فقرته الأساسية، ما أطلق عليه اسم " درس الفياقة "(23) الذي يوجه به التلاميذ ويصبرهم بحقائق الوطن، وخطورة الاستعمار، ولما اندلعت الثورة وخافوا من كلمة "الفلاقة"،(24) قال لهم الشيخ، أنتم المعنيون بهذه الكلمة، وهم أهلكم وإخوتكم الثوار، يدافعون على البلاد، وهم محل فخركم. ولما قال له المسؤول السياسي الفرنسي في الوادي "بيار بطايون" : (احذر أن تهتم فقط بأولادك وشؤونك الخاصة، ودعك من السياسة) . فرد عليه الشيخ وهل وجدت عندنا سلاحا؟ فقال المسؤول الفرنسي: (أخشى من تحريضك الذي هو أخطر من السلاح). (25)

ولما أقيم حفل لتكريم الشاب "عمر خزان" في مسجد الجديدة سنة 1954م، بمناسبة حفظه 45 حزبا من القرآن الكريم، وحضر جمع غفير من أهل القرية، حينها ألقى الشيخ العروسي حويتي قصيدته المشهورة "أبناء الجديدة" التي أصبحت مبعث فخر لأهلها ، وهي:

شباب الجديدة لا تشتغل ***	بغير العلوم وحب العمل
شباب الجديدة أنت المني ***	وأنت الحياة وأنت الهني
وأنت الأساس لكل بنا ***	فبالجهل واللهو لا تحتفل
بنو الدين أن النفوس طغت ***	تحب الحطام فما اتعظت
فكونوا أساة لها إذ شقت ***	فإن الدواء يزيل العلل
بلاد لكم قد عراها السقام ***	فأنت مثل الحمار تغام
تعلم إذا ما اردت الحياة تنال ***	وتسعي وراء الخيال المظل
فإن بني سوف أشقى الورى ***	فمن جهلهم يحبون الثرى

فيا ليتني كنت فيها أرى لأدعو *** فتنجى من كل الزلل
سلام عليكم يفوق القمر *** علا وضياء في وقت السحر (26)

ج- النشاط التعليمي: وهو تطبيق البرنامج الدراسي، بكل فقراته اللغوية، والتعليمية، مع تحفيظ القرآن وتفسيره ومراجعته:

كان المنهج التعليمي للمدارس الحرة، منهاجا إصلاحيا علميا له صبغته الوطنية، ويهدف إلى تزويد المتعلم بمعارف تجعل منه شخصية عربية إسلامية وتقوي فيه مقومات الشخصية الوطنية، وهو مستمد في كثير من مواده من برنامج جامع الزيتونة، كما هو الحال في مدرسة الإصلاح بالزقمة، والتي تعتمد المتون والمنظومات، أو جمعية العلماء التي تنتهج نفس السبيل مع التركيز على المواضيع الفكرية، كما هو الحال في برنامج مدرسة النجاح بقمار.

- تحفيظ القرآن الكريم، وكان يقدم في حصة بالمسجد القريب من مدرسة النجاح، بعد صلاة الصبح. ثم يتوجه للدراسة في المدرسة الأهلية، وبعدها يدرس التلميذ في مدرسة النجاح إلى غاية الواحدة، ثم يرجع للمدرسة الفرنسية، ومساء، يدرس في النجاح إلى قبيل العشاء. (27) كذلك الشأن في مدرسة البعث بالجديدة. وأهم العلوم المدروسة:

- العلوم الدينية: من عقيدة التوحيد، والفقه، والسيرة النبوية.
- العلوم اللغوية: من نحو وصرف، والبلاغة، والأدب العربي. المحفوظات، والقراءة والاملاء. وتعليم الخط.

- المواد العلمية، كالحساب، والمنطق، والعلوم الطبيعية، والرسم.
- العلوم الاجتماعية، كالتاريخ والجغرافية، والتي ترسخ التعريف بالوطن والوطنية، وكانت مادة التاريخ مقسمة إلى عدة أقسام: تاريخ القرون الأولى، القرون الوسطى، الفترة الحديثة من كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني. والجغرافيا مقسمة إلى قسمين: جغرافيا عامة تتعلق بجغرافية العالم وخاصة تتعلق بجغرافية الجزائر. (28)

د-النشاط التربوي: وهو تعليمهم الصلاة، والآداب الإسلامية، والقيام بأعمال تخص المجتمع. فكان الشيخ الطاهر التليلي، لما يدرّسهم وقت المغرب، يؤدون صلاة المغرب جماعة في فناء المدرسة. (29)

وكانت معظم المدارس للبنين، ومنها خصصت وقتاً للبنات في مدرسة النجاح، ومدرسة البعث بالجديدة، وهي قيمة كبيرة في ذلك المجتمع الذي يعتبر البيت هو عرش المرأة الذي تختفي فيه عن الأنظار، ولا يمكنها مشاركة الرجال، ولهذا فأغلب النساء - في تلك المرحلة - يكبل عقولهن الجهل، ونفوسهن الفراغ الروحي، وتنتشر الأمية في صفوفهن. واستطاعت المدرسة الإصلاحية تكسير هذا العرف، وتمكنت من تعليم عدد من البنات، وصل بعضهن إلى امتحان الشهادة الابتدائية.

4-أثر المدرسة الإصلاحية في المجتمع وردود فعل المستعمر:

مضت المدرسة الإصلاحية في رسالتها الفكرية والتربوية، وأداء هدفها التعليمي، وتركت أثراً معتبراً في نفوس الناشئة، وشعر المستعمر بخطورها، فضيق عليها الخناق، ولكنها انتصرت بالصبر وطول العزيمة، وثبات الشعب:

-تمسك المجتمع بالمدرسة القرآنية، والتي يقبل عليها التلاميذ صباحاً، قبل الذهاب للمدرسة الفرنسية، ويدرسون مساءً ويراجعون القرآن الكريم، وكانت المدرسة الفرنسية، تغار من اقبال التلاميذ، حتى أن معلم مدرسة تكسبت الفرنسية يقبل على معلم القرآن ويلومه على عدم احترام الوقت، ويأخذ من وقت المدرسة الأهلية، ولكن معلم القرآن يأتيه بالمنبه، ويقيم عليه الحجة، دون خوف أو وجل. (30)

كما كانت المدرسة الأهلية بقمّار تحاول من الشيخ التليلي أن يتعاون معها ولكنه امتنع، وذكر ذلك زائر تونسي، عام 1952: (.. وطالما راودته المدرسة الحكومية على إعطاء ساعة بالعربية ففضل مدرسته على مدرستهم). (31)

- قيام التلاميذ بأدوار في المجتمع، تبرز أثر المدرسة في تعميق الروح النضالية، فكان الشيخ الهاشمي حسني، يلقي درسا على تلاميذه، ويشجعهم على مناصرة فريق أولمي الوادي ضد فريق الملحق العسكرية، يخرج التلاميذ قبيل انتهاء فترة الدراسة، وكانت الغلبة للفريق المحلي، مما جعل الاستعمار يفتك بالشباب في اليوم الموالي، ويوقف نشاط الفريق الرياضي السوفي. (32)

- مدهمة المدارس - في بعض الأحيان - على حين غرة، عندما يحرض الخونة على المدرسة، فيقوم المعلمون والتلاميذ بإخفاء أدوات المواد الممنوع تدريسها مثل كتب التاريخ وخرائط الجغرافيا ويضعون أمامهم المصاحف وعندما يسألهم الجنود ماذا تقرأون؟ فيجيبون: Coran Coran. (33)

- اغلاق المدرسة بعد التضييق الشديد، مثلما وقع لمدرسة الفلاح بالخبنة، فكانت تسير على خطى مدرسة النجاح، ولكنها في بداية الثورة تعرضت لمضايقة السلطات العسكرية، والمدهمة، وأوقف شيخها محمد التركي للمساءلة، واتهموه بمساعدة الثورة، وتوعية التلاميذ بالحالة السياسية، وبذلك ترك الشيخ المدرسة وتحول إلى مدرسة النجاح بقمار، وأغلقت المدرسة. (34)

- تعرض معلمي المدارس الحرة بوادي سوف، للاستنطاق، والتعذيب، والسجن، مثلما وقع للشيخ الهاشمي حسني، والشيخ الطاهر التليلي وتم غلق مدارسهم مثلما وقع لمدرسة الخبنة وشيخها محمد التركي، والحكم عليه بالإعدام، مثلما وقع للشيخ إبراهيم كلكامي، في مجزرة رمضان عام 1957، والتي صورتها الشاعرة الشعبية، مباركة بنت عمر بوكي، قائلة:

بعد اللي زهت الأيام غرت بيا *** و تحزت الطلبة وديارها مخلية
نهار موتانا لرياح تضرب ولبراق شيارة *** أملاك حزنت في السماء (غضبانة) (35)

وتصف هذه القطعة الأدبية الثورية الحزينة، كيف أن الأيام بعد السعادة السابقة، كأنما أخلفت الوعد، حينما اعتقل الطلبة والمعلمون، وأعدموا في مجازر 1957، حتى أن ملائكة السماء شاركت في الحزن، مبدية غضبها من الجلادين.

خاتمة:

إن مرحلة الثورة التحريرية بوادي سوف، والتي خاض فيها المجاهدون معركة السلاح، كان بموازاتها، وسائل أخرى للكفاح، ذات الطابع الاستراتيجي، ممثلة في المدارس التي انتشرت في مختلف قرى ومدامر وادي سوف، وحملت مشعل الإصلاح ورسالة التوجيه، واستهدفت التلاميذ، واعتبرتهم رجال المستقبل الزاهر، وحققت النتائج التالية:

- تمكنت تلك المدارس من تحقيق أهدافها، فكشفت عن ضلالات الفكر الخرافي، وأنارت العقول بالمعرفة الحقيقية، النابعة من الكتاب والسنة، وفهم العلماء الأجلاء.

- بثت الوعي السياسي لدى التلاميذ وعلى قدر عقول الناشئة، والذي تعمق وأثر رجلا أصلاء، شدوا الرحال إلى الجبال، واندمجوا مع الثوار، وتمكنوا من الشهادة أو مكثوا حتى تحرير البلاد.

- نجحت المدرسة في تربية الأبناء والبنات على القيم الدينية، وتعليمهم الصلاة والأخلاق الفاضلة، والقيم الوطنية، وكيف يضحي المسلم من أجل تحرير وطنه وضمان سعادته.

- كان الجانب التعليمي، القيمة الأساسية التي غطت على كل النشاطات في المدرسة، ومنه انبثقت أنوار الحكمة، وكللت بالنجاح.

-الهوامش والإحالات

¹ - الجر من النخيل: هو مجموعة من مزارع النخيل التي تكون في خط واحد، قد يصل إلى كيلومترين أو ثلاث، تتطلب من الفلاحين إلى التفكير في الاستقرار بجانبها، فيشيدوا بيوتهم، وحينها تبدأ نواة "النزلة" أو القرية الصغيرة في ربوع الريف بوادي سوف.

- 2 - موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1939)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف الدكتور أحمد صاري، قسم التاريخ والآثار، جامعة قسنطينة، 2005-2006، ص 138.
- 3 - علي غنابزية، "الشيخ محمد الطاهر التليلي رائد التعليم العصري في مدرسة النجاح بقمار"، محاضرة قدمت بالندوة الفكرية الرابعة: العلامة عبد القادر الياجوري يومي 26-27 ديسمبر 2004 بقمار، وتوجد ضمن مدونة بعنوان: العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي 1910-2003 قراءات في سيرته وفكره وآثاره، من إصدارات الجمعية الثقافية للمركز الثقافي محمد ياجور بقمار، مطبعة مزوار، الوادي - الجزائر، 2005، ص 115.
- 4 - حي أولاد أحمد: وهو الحي العريق، من أقدم أحياء مدينة الوادي، يوجد في وسط المدينة بالقرب من المنشآت العسكرية والإدارية الفرنسية، وهو متاحم كذلك للسوق الرئيسية بالمدينة.
- 5 - عاشوري قمعون، الشيخان، من إصدارات مجموعة من المؤسسات الثقافية بالوادي، مطبعة مزوار، الوادي - الجزائر، 2010، ص 106-107.
- 6 - محفوظ ملاوي، علي كرباع، "الدور العلمي والحضاري للمخطوطات في منطقة الجنوب - وادي سوف أنموذجا - دراسة أركيولوجية"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 08، العدد 02، ديسمبر 2024، ص 117.
- 7 - مدينة قمار: وهي المدينة الثانية في المنطقة، وتوجد شمال وادي سوف، وتبعد عن قاعدته بحوالي 15 كلم، ولها مكانتها الدينية والعلمية البارزة. انظر، حسونة عبد العزيز، "عمارة الثرى المبكرة في وادي سوف"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 05، العدد، ديسمبر 2021، ص 409-410.
- 8 - خبينة الرقيبة: الخبنة هي ضاحية تابعة لبلدة الرقيبة في شمال قمار، وتبعد عن قاعدة لمنطقة بحوالي 30 كلم.
- 9 - يوسف زغوان، التعليم العربي الحر بوادي سوف 1931-1961، من خلال الوثائق المحلية والروايات الشفوية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تحت إشراف الدكتور علي غنابزية، قسم التاريخ، جامعة حمه لخضر بالوادي، 2014-2015، ص 105-107.
- 10 - بلدة الرقم: توجد في الناحية الشرقية لوادي سوف، وتتميز بعلمائها، وعراقتها في استقرار سكانها بالمنطقة، وتبعد عن مدينة الوادي بنحو 15 كلم.
- 11 - سعد العمامرة، أحمد منصوري، أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب، من إصدارات جمعية الجماعة السوفوية، مطبعة مزوار، الوادي - الجزائر، 2006، ص 93.
- 12 - بلدة الجديدة: وهي ضاحية تابعة لمنطقة الدبيلة العريقة، وعرفت بالجهادين الأفذاذ، وتبعد عن قاعدة المنطقة بحوالي 20 كلم.
- 13 - عبد الرزاق خزان، العلامة الموسوعي الشيخ المجاهد العروسي حويقي ودوره التعليمي والثقافي 1912-1978، مذكرة ماستر، تحت إشراف الأستاذ الدكتور علي غنابزية، قسم التاريخ جامعة الوادي، 2021-2022، ص 36-65.
- 14 - الحبيب سالم، أحمد عصماني: "التعليم العربي الحر بوادي سوف مدرسة تغزوت أنموذجا - - 1953 / 1956 م"، مجلة قيس للدراسات الإنسانية والاجتماعية، المجلد 04، العدد 02، ديسمبر 2020، ص 304-317.
- 15 - علي غنابزية، المرجع السابق، ص 36-65.

- 16 - محمد الطاهر التليلي، الدموع السوداء -ديوان شعر، تح وتقد أبو القاسم سعد الله، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 270.
- 17 - القومية: هم أعوان الاستعمار من الخونة الذين يساعدونه ضد أبناء وطنهم.
- 18 - عبد الرزاق خزان، المرجع السابق، ص 36.
- 19 - عاشوري قمعون، الشيخان، ص 107.
- 20 - لقاء تلميذ مدرسة النجاح، المعلم عمر دريدي، 2004/12/18.
- 21 - عبد الرزاق خزان، المرجع السابق، ص 57.
- 22 - محمد الطاهر التليلي، الدموع السوداء -ديوان شعر، المصدر السابق، ص 271.
- 23 - درس الفياقة: وتعني الفطانة، وكلمة الفياقة من لهجة المنطقة وتعني كل من تعلم وتنبه ولا يمكن الإيقاع به أو استغفاله في سبل الباطل، والشيخ يريد توجيه تلاميذه توجيهها سياسيا بسيطا ولكنه عميق المعاني.
- 24 - الفلاقة: وهو اللفظ الذي أطلقه الاستعمار على المجاهدين، ووصفهم بدعاة عنف، وهو يشير إلى الفعل(فلق) أي فجر الشيء، وكانوا يفجرون عربات ومنشآت العدو، ثم عمم على كل أعمالهم الثورية.
- 25 - عاشوري قمعون، الشيخان، المرجع السابق، ص 108-109.
- 26 - عبد الرزاق خزان، المرجع السابق، ص 60-61.
- 27 - علي غنابرية، المرجع السابق، ص 123.
- 28 -
- 29 - يوسف زغوان، المرجع السابق، ص 97.
- 30 - لقاء مح استاذي محمد لبيضة، قبل وفاته في التسعينيات، وكان تلميذا بالمدرستين الأهلية الفرنسية والقرآنية بتكسبت.
- 31 - إبراهيم رحمان، الشيخ محمد الطاهر التليلي وجهوده في البحث الفقهي والافتاء، مطبعة سخري، ط1، الوادي - الجزائر، 2011 ص 36. محمد الصالح الجابري، النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 45.
- 32 - محمد بوقطاية، أولمي الوادي والواحات، مطبعة مزوار، ط1، الوادي - الجزائر، 2009، ص 52-57.
- 33 - يوسف زغوان، المرجع السابق، ص 101-102.
- 34 - نفسه، ص 115-116.
- 35 - يوسف زغوان، المرجع السابق، ص 124.